

## كتب بالإنكليزية

الفلسطينيون: صيرورة شعب\*

The Palestinian People: A History

Baruch Kimmerling & Joel S. Migdal

Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2003. 568 pages.

باروخ كيمرلنغ هو أستاذ علم الاجتماع في الجامعة العبرية، ومن أبرز رموز تيار علماء الاجتماع النقديين في إسرائيل (تيار ما بعد الصهيونية)، ويؤيد مغدال هو أستاذ العلاقات الدولية في جامعة واشنطن. وللمؤلفين مجموعة من الكتابات المهمة عن موضوع الهوية والأرض والسياسة في المجتمعين الفلسطيني والإسرائيلي.

يقدم الكتاب مادة غنية وممتعة للقراءة عن التاريخ الاجتماعي والسياسي للشعب الفلسطيني على مدى 200 عام تقريباً، وبالتحديد منذ سنة 1834 (عندما هب الفلسطينيون ضد إبراهيم باشا، نجل حاكم مصر القوي محمد علي الذي احتل فلسطين) حتى اليوم. اعتبر الكاتبان هذه الانتفاضة الشعبية المسلحة بداية التاريخ الحديث للشعب الفلسطيني لأنها كانت أول حركة سياسية واحدة جمعت فئات المجتمع الثلاث: فلاحي الريف وزعماءهم، وأعيان المدن، والبدو، في انتفاضة مسلحة عمت أرجاء فلسطين كافة.

يروى الكتاب كيف ناضل الفلسطينيون منذ هذا الحدث لبناء أنفسهم كشعب، مروراً بفترة الانتداب البريطاني وتحت وطأة تأثير السياسات الصهيونية التي أرادت إقامة كيان سياسي لا مكان فيه للفلسطينيين. ويرى الكاتبان أن التحدي الذي فرضته الحركة الصهيونية وقيام دولة إسرائيل كانا حاسمين في تشكل الهوية الفلسطينية وصوغها.

والكتاب نسخة مزيدة ومنقحة لطبعة أولى صدرت بالإنكليزية سنة 1994 بعنوان آخر هو "الفلسطينيون: تكوين شعب" (*The Palestinians: The Making of a People*). ولاحقاً صدرت نسخة مزيدة باللغة العبرية ترجمت إلى العربية، وقد أثار في حينه

(\*) باروخ كيمرلنغ ويوئيل شموئيل مغدال، "الفلسطينيون: صيرورة شعب"، ترجمة محمد حمزة غنايم (رام الله: مدار/المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، 2001).

ردات فعل واسعة، وحظيت بقدر كبير من المراجعات\*.

تنبع أهمية الكتاب من كونه الكتاب الوحيد، على حد علمي، الذي يغطي بعمق فترة زمنية طويلة تشمل في آن واحد التاريخ الحديث والتاريخ المعاصر للشعب الفلسطيني، وكذلك من فهم المؤلفين الأصيل لثورة 1834 وتبنيها ضمناً كنقطة انطلاق لوجود نوع من الوعي بين سكان يعيشون على أرض فلسطين بالانتماء إلى الجماعة الوطنية نفسها (شعب). وهذا أبعد مما ذهب إليه كثيرون من المؤرخين الفلسطينيين والإسرائيليين، الذين كانوا ينطلقون من بداية الاستيطان الصهيوني في فلسطين سنة 1882، أو من بداية الانتداب على فلسطين.

هذه النقطة بالذات أثارت غضب بعض المؤرخين الإسرائيليين، الذين يرفضون الاعتراف بأي علامات تشير إلى وجود شعب فلسطيني، على الأقل في وقت مبكر مثل سنة 1834. من ناحية أخرى، فإن بعض المؤرخين الفلسطينيين (ما زال قلة) يفضل عهد حاكم عكا والساحل، ظاهر العمر، في مطلع النصف الثاني من القرن الثامن عشر، كبداية كتابة التاريخ الحديث للشعب الفلسطيني، على الرغم من انتهاء تجربة ظاهر العمر بالفشل؛ إذ حملت هذه التجربة بداية وعي كيان سياسي وتطور ملموس في الاقتصاد والتصدير إلى الخارج.

على الرغم من عدم اعتماد الباحثين على مصادر أولية وأرشيفية أساساً، فإنهما وظفاً كما ضخماً من المصادر والأدبيات التي كتبت عن الموضوع لإنتاج عمل يتسم بقدر كبير من الدقة. كما اعتمدا في تحليلاتهما على علم الاجتماع السياسي، وهذا منحى نادر في الكتابات التاريخية عن الشعب الفلسطيني، الأمر الذي أعطى الكتاب طابعاً متميزاً. كما ركز الكتاب على التحليل وتقسيم المادة إلى موضوعات أكثر من الاعتماد على السرد التاريخي. ولهذا السبب حاول المؤلفان تغطية نقص التسلسل الزمني من خلال تقديم مسرد طويل بأهم الأحداث في نهاية الكتاب، يستطيع العودة إليه غير المتخصصين. كما يتسم الكتاب بلغته المصوغة ببساطة وعمق في آن واحد. لهذه الأسباب ليس من الغريب أن الكتاب أصبح، منذ صدور طبعته الأولى، مرجعاً لا لطلبة تاريخ الشرق الأوسط فحسب، بل أيضاً لكثير من المتخصصين.

في المقابل، يعاني هذا الكتاب الممتع والمفيد بعض المشكلات الحقيقية: بعض الأطر النظرية والمنهجية التي استخدمها الكاتبان أحياناً يعود إلى دوافعهما السياسية، وبعضها الآخر يعود إلى طابع معرفي.

فعلى الرغم من نقد المؤلفين القوي أحياناً لممارسات الحركة الصهيونية وإسرائيل، فقد ظل هذا النقد ضمن إطار فهمهما للحركة الصهيونية كحركة تحرر وطني لا كمشروع كولونيالي استيطاني (رودنسون، بابيه، غرشونشافير..). من ناحية أخرى، يمكن القول إن دراستهما للمجتمع الفلسطيني في القرن التاسع عشر – والتي تحتل مساحة كبيرة من الكتاب – ظلت في إطار نظرية التحديث. فهناك إعجاب خفي بتطور المستعمرين الصهيونيين وتخلف الفلاحين الفلسطينيين (ص 23 – 25)، وهو توجه غير مبرر في ضوء الدراسات الحديثة (روجر أوين، ألكسندر شولش، حايغيربر، بشارة دوماني، إلخ).

والنموذج الأوضح للمشكلات الناجمة عن استخدام المؤلفين إطار نظرية التحديث هو خلطهما بين طرق الزراعة التقليدية للفلاح الفلسطيني وبين زراعة الكفاف. صحيح أن طرق الزراعة وتقنياتها استمرت في معظمها من دون تغيير، لكنها كانت ملائمة لطبيعة التربة في المناطق الجبلية، وهي المناطق المركزية للفلاحين الفلسطينيين.

ونحن نعرف اليوم على وجه اليقين، اعتماداً على المصادر القنصلية الأوروبية، أن فلسطين أنتجت فوائض زراعية كبيرة، واندمجت في الاقتصاد العالمي بصفة مصدر للقمح والزيت والصابون والقطن خلال الفترة 1856 – 1882، أي قبل ظهور أي مساهمة مهما كانت محدودة من المستوطنين اليهود في اقتصاد فلسطين. بل إن فلسطين كانت مندمجة جزئياً في السوق العالمية ومجال التصدير منذ منتصف القرن الثامن عشر (أمنون كوهين).

وعكس ما يقوله كيمرلنغومغدال فإن السبب الرئيسي في فشل مستعمرة بيتح تكفا سنة 1878، وهي أول مستعمرة يهودية في فلسطين، لم يكن مرض الملاريا بقدر ما كان فشل المستوطنين الذين لم يكونوا مؤهلين كفلاحين لمنافسة جيرانهم الفلاحين الفلسطينيين عندما أنتجوا المحاصيل الحقلية نفسها. ولولا ملايين الجنيهات التي أغدقها روتشيلد على المستوطنين الأوائل، لما أعيد فتح مستعمرة بيتح تكفا سنة 1882، ولما تمكنت بقية المستعمرات من البقاء أصلاً (أنظر الدراسة عن المستعمرات في العهد العثماني، تحرير موشيه ماعوز، "فلسطين في نهاية العهد العثماني"، منشورات الجامعة العبرية، باللغة الإنكليزية).

كما ركز الكاتبان أكثر من اللازم على الانقسام في المجتمع الفلسطيني،

وخصوصاً بين ريف ومدينة، وبين مدن الساحل ومدن الداخل، وبين الطبقات؛ وهذا ما أوقعهما في نوع من التناقض عندما تحدثا عن توحيد المجتمع الفلسطيني بتناغم بين الحريين العالميتين ضد المشروع الصهيوني. (ص 37)

وعلى امتداد صفحات الكتاب أراد الكاتبان تقديم رواية "متوازنة" بين الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي تقرب الفجوة الواسعة التي تفصل بين الروايتين. ولعل سبب ذلك عدم رغبة الباحثين في تقديم رواية تجعلهما خارج إطار شرعية المؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية الرسمية (كما هي الآن حال مؤرخين مثل بابيه أو داني كاتس)، أو لدافع نبيل يطمح إلى تحقيق السلام بين الشعبين من خلال جسور الهوة التي تفصل بين الطرفين. غير أن ذلك جعل روايتهما أحياناً كـ "سوبر ماركت" تجد فيه ما تشاء.

في بعض الأحيان أطلق الباحثان أحكاماً موضع تساؤل، كالحديث عن "أهداف السياسة البريطانية تجاه الريف الفلسطيني خلال عهد الانتداب بكونها في الغالب أهداف العثمانيين نفسها. فقد تبنى البريطانيون بوضوح القوانين العثمانية التي سادت في القرن التاسع عشر - وبالتحديد قانون الولايات العثماني لسنة 1913 - أساساً لحكمهم فلسطين. وكما الأتراك فقد أرادوا جمع عوائد أكبر من الضرائب، ونظاماً أكثر فعالية لتسجيل الأراضي، وتحطيم النظام المشاع التعاوني، ودعم دور المختار بصفته الذراع الرسمية للحكومة في القرية، وإنتاجاً أكبر في مجال الزراعة بصورة عامة" (ص 31). "الفارق هو أن البريطانيين كانوا أكثر فعالية وقدرة على اختراق مجتمع القرية." (ص 32)

ونحن نعتقد أنه على عكس هذا الادعاء فإن فلسطين تحت نظام الانتداب تعرضت لتغييرات قانونية واسعة جذرية وتعسفية. فالانتداب البريطاني لم يسع للضرائب كما فعل العثمانيون، لكن لفرض نظام حكم كولونيالي من أجل دعم الحركة الصهيونية، التي كان هدفها المعلن التغيير الكامل والشامل لسياسات الأرض والمجتمع من أجل تأسيس دولة يهودية في فلسطين. وعكس ما يدعيه الباحثان فإن رغبة البريطانيين والصهيونيين (!!!) في تدمير نظام المشاع في فلسطينم تكن تهدف، بأي حال، إلى تحسين وضع الفلاحين الفلسطينيين (ص 18) وإنما إلى القضاء على نظام كان يمنع عملياً انتقال الأرض من العرب إلى اليهود، وتستند إلى أرضية النظام شبكة العلاقات الاجتماعية، بما في ذلك التكافل الاجتماعي والتعاون، التي أراد الصهيونيون تحطيمها بأي ثمن. وأستطيع القول، بكل ثقة، إن خريطة الاستيطان الصهيوني في

فلسطين وامتلاك الأراضي كانت تتطور منذ القرن التاسع عشر بموازاة خريطة التحول في ملكية الأرض من المشاع إلى الخاص.

إن رواية المؤلفين عن حرب 1948 ظلت تراوح ضمن إطار لا يتجاوز رواية بني موريس؛ والمادة عن حرب 1967 غير مكتملة، غاب عنها بعض المعلومات الجوهرية. وعلى سبيل المثال، قرار الحكومة الإسرائيلية السري سنة 1963 باحتلال الضفة الغربية في أعقاب تظاهرات واسعة النطاق قام بها الفلسطينيون والأردنيون تأييداً لعبد الناصر ومشروع الوحدة الثلاثية، وكيف تم تعيين حاكم عسكري عام للضفة الغربية بعد ذلك بعام، كان من مهماته إرساء نظام القانون العسكري الذي سيفرض على السكان؛ وهو قانون مستمر حتى اليوم بعد مرور نحو أربعين عاماً (كتاب شلومو غازيت، "العصا والجزرة" النسخة العبرية، وغازيت هو رئيس سابق للاستخبارات العسكرية الإسرائيلية)، وأسباب هروب مئات الآلاف من الفلسطينيين عند اندلاع الحرب (بيتر دود وحليم بركات، "نهر بلا جسور" / *River without Bridges*). مثل هذه المعلومات من شأنه إعادة فهم الصراع العربي - الإسرائيلي بشكل جذري.

في الفصل الخاص بأوسلو قفز المؤلفان عن محادثات واشنطن إلى مؤتمر مدريد والأسباب الشخصية التي قادت عرفات إلى الالتفاف على الوفد الفلسطيني بقيادة حيدر عبد الشافي. كما تعاملوا بـ "رقعة" مع عدم كفاءة المفاوضات الفلسطينية خلال مفاوضات أوسلو، وفشل السلطة الفلسطينية في إدارة الصراع. غير أنهما قدما كثيراً من الأسباب المهمة لفشل العملية السياسية، وأوضحا بشكل جلي مسؤولية إسرائيل عن فشل هذه العملية. وقد أكدوا أن من مثالب أوسلو الرئيسية: عدم وجود قوة خارجية تؤدي دور الحكم بين الطرفين؛ عدم توازن الاتفاق نتيجة الخلل في موازين القوى بين الطرفين؛ انعدام الشجاعة السياسية لدى قادة الطرفين لمصارحة جمهوريهما بحقيقة الموقف والتنازلات المؤلمة الناجمة عن التوصل إلى اتفاق سلام. وأوضح المؤلفان كيف وصل الفلسطينيون بعد عدة أعوام من أوسلو إلى وضع زاد فيه الاستيطان ومصادرة الأرض، وتراجع دخل الفرد.

يقع المراجع لكتاب كيمرلنغ ومغدال في حيرة. فهو أمام مؤرخين لا يتبنيان وجهة نظر المدرسة التاريخية الصهيونية التقليدية، ويميلان إلى تفهم آلام الشعب الفلسطيني، وقدما عملاً احتاج إلى كم كبير من الجهد. ومن ناحية أخرى، فإنهما لأسباب كثيرة عاجزان عن أن يقطعا حدوداً معينة، وهذا أدى إلى إرباكهما ووقوعهما

في عدة مطبات.

في الختام، الكتاب شهادة على أن ظاهرة ما بعد الصهيونية لا تعني بالضرورة معاداة الصهيونية، أو وضعها في قيد تساؤل جذري. وفي رأبي أنه إذا كان من المحبذ تحقيق تسوية تاريخية على الصعيد السياسي، فإن من المحذور تطويع التاريخ قسراً لتحقيق هذه التسوية. وعلى الإسرائيليين، وخصوصاً المؤرخين والسياسيين منهم، أن يتعلموا من تجربة جنوب إفريقيا أن الاعتراف بالظلم الذي أوقع بالضحية يسبق المصالحة والغفران.

صالح عبد الجواد

أستاذ التاريخ

في جامعة بيرزيت

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>